دراســــــة نقديــــة في فكر المستشرقين جاك ريسلر وفان فلوتن

أ. نعيمـــة سعيد اليعقوبـــي - كلية التربية - جامعة الجفارة

الملخص :

دراســــــة التيارات الفكرية الاستشراقية أياً كانت ، مُنصفة ، أو غير ذلك ، هي من الأهمية بمكان إن أحسنا دراستها ؛ إذ تجعلنا أكثر قدرة على مواجهة ما تم طرحه منها ، محاولين قدر الإمكان تحديد موقفنا حول المغالطات التي جاءت بها وبكل موضوعي .

وبتتبعنا لبعض من الدراسات الاستشراقية ، وجدنا أن أصناف المستشرقين قد تعددت ، بتعدد وتنوع الغايات التي يسعى كلاً منهم للوصول إليها وتحقيقها ، فإلى جانب وجود المنصف منهم ، كان هناك من تمسّك بالروح العدائية التي تحملها دراساتهم حول الإسلام وتاريخه وحضارته.

المُقدمـــــــة :

شغل الاستشراق حـــيزاً كبيراً لدى المهتمين بدراسته ، حيث بدأت البعثات العلميـــة خـــلال فترة القرن التاسع عشر بالتوجه إلى الشرق عامة ، والعالم العربي خاصة للكتابة عنه ، والتعمق بالدراسات المتعلقة به ؛ في حـــين بدأ الغرب في تأسيس كراسٍ للدّراسات الاستشراقي تُعني بتدريس العلوم الشرقية والعربية والإسلامية على السواء ، كما استضافت بعض الجامعات الإسلامية والعربية والغربية، عدداً من المستشرقين لإلقاء المحاضرات حول علوم الشرق ، فظهر عددٌ هائلٌ منهم ممن مثل جنسيات مختلفة ، وسار في اتجاهات متنوعة ، وانطلق نحو أهداف متقاربة ، وانتسب إلى مدارس ذات خصائص محدده ، إلى جانب الإهتمام بالاختصاص الدقيق . حتي أنه لم يتوان أي منهم في أن يقضي فترة طويلة من عمره في بحث واحد يتفـرغ له ، ومن خلال الدراسة الفاحصة لكتاباتهم نلحظ أن المستشرقين ينقسمون في دراستهم للشرق الإسلامي إلى فئتين :

فئه دَرست الإسلام والتاريخ والحضارة العربية والإسلامية ؛ فأنصفت وشهدت له بصدق واخرى سَلطت أقلامها للطعن والتشوية والتحريف . لذا ومن باب إحقاق الحق رأينا تقديم دراسة نقدية في فكر كلاً من المستشرقين (ريسلر و فلوتن)

إشكالية البحث وتساؤلاته :

هل لهؤلاء المستشرقين حق الوصاية الفكرية علينا ؟ وهل آن الأوان لدى المستشـرقين لتطـــوير أساليبهم تلك والالتزام بالحيادية والموضوعية ، والنزاهة العلمية ؟ ثم هل يقبل هؤلاء المستشرقين أن نقوم بالوصاية الفكرية عليهم ؟ وإلى أي مدى كان للدراسات الغربية حول الشرق أثراً في تطور مجري الأحداث حوله ؟ وهل أسهمت دراساتهم في هذا المجال على رسم الصورة التي يرتضيها أهل الشرق لأنفسهم وهم أهل التاريخ والحضارة ؟ وإلى أي مدى كان لردود الكُتاب والباحثين العرب المسلمين علي مثل هذه الدراسات، التي تمس روح تاريخنا العربي الإسلامي ، أثراَ في تصحيح العديد من المغالطات حول الشرق ، ديانةً ، وحضارةً ، وانتماءً ؟

لقد أسهمت تلك الإشكاليات التي سبق التنويه عنها في زيادة الاهتمام بالدراسات التي تناولها المستشرقون ، للتعرِف على المسألة الشرقية ، ومجال البحث فيها ، وعلى طبيعة العلاقة المنهجية الغربية وآلياتها في معالجة الفكر والتاريخ العربي الإسلامي بمختلف زواياه .

أهميـــــة البحث :

تكمن أهمية البحث في النقاط الآتيـــــــــــــــة :

1- بيان مقدار استفادة المستشرقون من كنوز تاريخنا وتراثنا وحضارتنا الشيء الكثير.

2- مناقشة المصادر التي اعتمد عليها كلاً من : (ريسلر و فلوتن) في كتاباتهما حول التاريخ الإسلامي ، والعمل علي تقديم النقد البنّاء الذي يأخذ بالناس جميعاً نحو الحقيقة ، والعلم ، والمعرفة .

3- رد الحقائق إلي نصابها ، وإزالة ما علَق بها من تزييف وتشوية من بعض المستشرقين لتاريخنا ، وتراثنا ، وحضارتنا العربية والإسلامية .

5- تحصين الأجيال القادمة من براثن التغريب والتبعية .

المنهـــج :

المنهج المُتبع في هذه الدراسة هو المنهج التحليلي ، إلى جانب توظيف المنهج المقارن بما يتماشى مع طبيعة الموضوع .

تمهيد :

إن مســـألة المنهجية التي طَبقها المستشرقين في دراساتهم للتاريخ العربي الإسلامي مسألة ذات أهمية بالغة ؛ لأنها استحوذت على إهتمام باحثي ودارسي الفكر العربي الإسلامي والغربي علي حد السواء ، فالدارس الغربي يهتم بهذه المسألة من زاوية

معينة تنحصر في الكيفية التي عالج بها الغرب قضية الشرق ! أما الدارس الشرقي فإهتمامه الأساسي بهذه الدراسات كان بُغية التعرف على نظرة الغرب للشرق ، والمنهجية الغربية للدراسات الشرقية التي استخدمت أساليب عدة ، تراوحت ما بين الإيجابية والسلبية في دراساتهم لعلوم الشرق ومعارفة . وبالتالي فإن القراءة المتمعنة التحليلية والنقدية لكتابات المستشرقين ، تُقدم رؤية واضحة حول طبيعة التفكير الغربي . فهناك فئة قدمت صوراً جميلةً عبر الدراسات المختلقة للفكر الإسلامي ، تاريخه ، وحضارته ، وهم ممن التزم مبدأ الحياد والموضوعية ، فكانت كتاباتهم أقرب للاعتدال والإنصاف ، أما البعض الاخر فقد كان عكس ذلك تماماً .

أولاً ـ الاستشراق المفهوم ، والتطور التاريخي

الاستشراق هو علم (العالم الشرقي) ، وهو ذو معنيين :

عـــام : ويُطلق على كل غربي يشتغل بدراسة الشرق ، وخاص : ويقصد به الدراسة الغربية المُتعلقة بالعالم الشرقي في لغاته ، وعقائده ، وآدابه ، وتاريخه ، وحضارته ، وأديانه وبالتالي فهو أسماً واسعاً يشمل طوائف متعددة تعمل في ميادين مختلفة ، ولايزال الأوروبيون حتى يومنا هذا يستقون معلوماتهم عن الإسلام ، وتاريخ العرب وحضارته ، من كتابات المستشرقين منذ صدور قرارات مجمع فيينا الكنسي عام (1312م) بتأسيس كراســـــي الأستاذية لدراسة اللغة العربية في الجامعات والمعاهد الأوروبية ، التي أُنيط بها حمل أعباء الدراسات والمؤلفات العربية المترجمة ، لتبدأ الجامعات الغربية بعدها في اعتماد الكُتب العربية كمراجع للدراسة فيها [1] .

وبمجيء القرن الثامن عشر ظهر الاتجاه الحقيقي والمُنظم للاستشراق ، والمتمثل في الاستيلاء على الكنوز العربية من : مخطوطات ، ووثائق ، ومصادر، وكتب ، ذات أهمية كبيرة ، والانتقال بها إلى المكتبات والمتاحف الغربية ، بالإضافة إلى شراء البعض منها من أصحابها الذين لا يعرفون قدرها ، أو سرقة تلك الكنوز المعرفية من المكتبات العامة [2] ، ربما كان ذلك مكّمن السر في وجود تلك النوادر من المخطوطات ، والوثائق العربية الإسلامية في كلاً من : ألمانيا ، فرنسا ، بريطانيا ... وغيرها من الدَول الأخرى ، وقد إزداد تميز الاستشراق بالمعنى التخصصي مع القرن التاسع عشر ، والذي تجْلَى في إقامة الحكومات الغربية مدارس له لتعليم اللغات الشرقية ، وصاحب كل ذلك عدداً من المؤتمرات ، انعقد أولها في باريس سنة (1873م) . وأعقبها العديد منها فيما بعد ، حيث أنصَب الأهتمام فيها حول دراسة تاريخ ، وحضارة ، وعلوم الشرق ، ليُعلُق

على ذلك (رودي بارث)([3]) ، قائلاً : ((الاستشراق مادة علمية مُعترف بها من الجميع ... ، ونعترف شاكرين أن الحكومات والمجالس النيابية تضع تحت تصرفنا الإمكانيات اللازمة ، لإجراء البحوث ، وما يُطلب منا هو بصفة عامة العمل كمدرسين ، وباحثين متخصصين))[(4)] .

وبتتبع إنتاج المستشرقين يتضح أن هناك فئات مختلفة يمثلون جنسيات متعددة ، ويسيرون في اتجاهات متنوعة . ولا بد لكل من أراد الخوض فى ميدان الاستشراق أن يُلم بأطراف كل تلك الاختلافات ، وهذا على ما يبدوا أمراً مستحيلاً ؛ لكن مع استحالته فمن الممكن الالتجاء إلى التوزيع الجغرافي كأساس للتصنيف حيث أن البيئة بخصائصها الإيجابية كانت أم السلبية ، تبقى ذات أثرٌ كبيرٌ في تكوين شخصية الكاتب وتوجيه افكاره ، والتي قد تتأرجح ما بين الانصاف أو التعصب ، لذلك سنحاول تقديم عرض يُظهر الآلية المنهجية التي اعتمدها بعض المستشرقين في دراساتهم للتاريخ العربي والإسلامي ، وما حملته هذه المنهجية من مغالطات بينَّة ، وتتبع المدارس التي ينتمون إليها ، وسنكتفي هنا بعرض أفكار نموذجين للدلالة علي ذلك .

النمـــــوذج الأول : هو المستشرق الفرنسي : جاك ريسلر([5]) ، وكتابة (الحضارة العربية)، وهو من الفئة التي قدْمت طرحاً موضوعياً عبر دراسته للفكر والتاريخ والحضارة الإسلامية، والتزم مبدا الحياد والاعتدال والإنصاف .

و**النمـــوذج الثاني** : فهو المستشرق الألماني : فان فلوتن (1866 - 1903 م) وكتابة (السيادة العربية) ، ترجمه عن الفرنسية وعلَق عليه كلاً من : حسن إبراهيم حسن ، ومحمد زكي إبراهيم ، منشورات مكتبة النهضة المصرية ، ط 1 ، القاهرة ، 1965م . وهو من تلك الفئة التي ابتعدت عن النزاهة العلمية والموضوعية ، وممن سَطروا الأقاصيص والمعلومات الكاذبة حول تاريخنا العربي الإسلامي ، حيث سنقوم بطرح أفكارهما من خلال كتابيهما المترجمان للعربية ، وبيان مدى أثر ذلك على الفكر العربي الإسلامي ، وصولاً منا لاستكمال الرؤية التاريخية لموضوع الدراسة بالقدر الذي يفـــي بالغرض .

ثانياً ـ المدرسة الفرنسية خصائصها ، وأهـــم أعلامها :

لعبت فرنسا دوراً مهماً في الدراسات الاستشراقية ، تمثلت حول تأسيس مدارس لتدريس اللغة العربية ، وكراسٍ للدراسات الشرقية والاسلامية ، ويُعتبر معهد اللغات الشرقية الذي تأسس سنة (1195 م) ، أهم مكان ترعرع فيه الاستشراق الفرنسي ،

وكذلك جامعة السوربون ذات الشهرة العالمية ؛ كما تم تزويد المعاهد والجامعات والمكتبات الفرنسية ، بأعداد من الكتب ونوادر المخطوطات العربية والإسلامية العلمية والأدبية والتاريخية بالغة الاهمية ؛ كما يصدر من باريس كل ثلاثة أشهر الكثير من الصحف التي كان من أشهرها (صحيفة العلماء) و (المجلة الآسيوية) ، تحت رئاسة المستشرق (دي ساسي)([6]) ، وتُعني خصيصاً بتاريخ ، وجغرافية وثقافة ، وحضارة ، وفنون العرب ، لذلك فإن الدراسات الاستشراقية الفرنسية في القرن الثامن عشر عُرفت بعمقها وشموليتها وتعددها ، فهي لم تترك ميداناً من ميادين المعرفة الشرقية والعربية إلا وتناولته بحثاً ، ونقداً ، وتمحيصاً .

خصائصها :

1- اهتمامها مند البداية بكل ما يتعلق بالشرق بعامةٍ ، والعالم العربي بخاصةٍ .

2- تُعد هذه المدرسة المرجع الأوروبي الأول في الأبحاث والدراسات المختلفة .

3- اهتمامها بفهرسة الكثير من الكنوز الشرقية كالمخطوطات ، ونوادر الكتب .

4- اهتم الكثير من رَوادها بالآثار وتتبعها في مواقعها ، وانشائهم المراكز لدراستها .

5- كان من مزايا الاستشراق في هذه المدرسة آنه اتسم بالتخصص .

أما أبـــــرز أعـــــلام هذه المدرسة فنشير لبعض منهم وهـــم :

1- باربيية دى (ت 1908 م) ، حقق مخطوط (مروج الذهب) .

2- بيلو (ت 1906 م) ، حقق مخطوط (الغصن النضير) .

3- دوجا (د ــ ت) ، حقق مخطوط (نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب) .

4- ماسينيون (ت 1962 م) ، حقق مخطوط (أشعار الحلاج) [(7)] ، . . . وغيرهم ، وقد وقع اختيارنا علي أحد أعلام هذه المدرسة كأنموذجاً ألا وهو : ــ جاك ريسلر : لاعتبار جهده بمثابة دراسة أساسية حول معرفة الأزمنة السابقة للإسلام ، كما سلَّط الأضواء على الينابيع المادية ، والمعنوية التي نهل منها الإسلام ، ووصف الأثر الساطع للفكر العربي في الحضارات الغربية . وقد أكد في كتابة :((إن الغاية الكامنة وراء تأليف هذا الكتاب هو محاورة القارئ الفرنسي خصوصاً ، والغربي عموماً لتعريفه بجاره العربي القديم والدائم ، العدو والصديق))([8]). لذا فإن الكتاب فريد من نوعه في عرضه من حيث ربط الفرضية الكبرى ، بأجوبة وحلول لها متواصلة وهـــي : لماذا تقدم العرب ؟ ومم نهلوا ينابيع تقدمهم ؟ ثم لماذا تأخروا حضارياً ومازالوا حتى اليوم يحومون حول مستغلق الماضي ؟ ولأهمية محتوى الكتاب تمت ترجمته إلى

عدة لغات ، من بينها اللغة العربية التي صدرت في بيروت ، سنة 1993م ، وقد يجد القارئ العربي في هذا الكتاب تقارب للعقليات مع كتاب لويس غارديه[9] ، في كتابة: (رجالات الإسلام)، تعريب : خليل أحمد خليل ، منشورات دار عويدات ، ، بيروت ـ باريس 1994م ، وتقارب آخر مع كتاب أرنولد توينبي[10] في عرضة لنظرية (التحدي والاستجابة ، الحضارة الإسلامية أنموذجاً) ، ترجمة : زياد عبد الكريم نجم ، منشورات الهيئة العامة لوزارة الثقافة ، ط 1 ، دمشق، 2010 م ؛ لذا فإن كتاب ريسلر غني بمعلوماته ، دسم في مادته لا غنى عنه لمن يهتم بدراسة الحضارة العربية.

أورد جاك ريسلر في الباب الأول من هذا الكتاب ، أسباب الفتح الإسلامـــي ، والذي يراه فتحاً لغوياً ، وفكرياً ، ودينياً ، بقدر ما كان فتحاٌ عسكرياً ، خاصةً وأن ينابيع العقلية العربية قد تألقت بالتآلف مع عقليات أمم وشعوب أخري كثيرة في منظومة حضارية ، استطاعت بقوة تكَونها أن تفرض نفسها واحدة من بين أربع ، أو خمس حضارات كبرى ، يقول ريسلر:((لقد أقتنع العرب سواءً بالعقل والضرورة ، أم بالعقيدة ، عظمة رسالتهم وضخامتها ، وأنها لا تكَمن فقط في أن يكونوا فيها جنوداً، بل تكَمن في كونهم روُاداً ، ورسلاً للإسلام)) [11] ، ولاشك أن ذلك الدور الذي يعترف به ، هو الذي قاد إلى القول أن ذروة الحضارة العربية ، وأثرها على الحضارة الغربية التي سطعت على امتداد القرنين التاسع ، والعاشر الميلاديين ، ترتب على سطوعها ، الروحي ، والعلمي ، والسياسي ، والاقتصادي ، قيام العصر الذهبي آنذاك . ولا يتردد أن يذَكرنا بأن عهد هارون الرشيد[12] هو العهد الأشهر لعصر الازدهار والرخاء ، فالمسلم فخوراً بجامعه ، مُعتزاً بمدينته ، وخليفته؛ لأنه يشعر بأن مجد حضارته ينساب نحوه [13] .

وأمام الحركة التطورية للحضارة العربية ، والنهضة الفكرية الشاملة ، والترجمات العربية للنصوص اليونانية ، بدأ نقل كل تلك الكنوز إلى اللاتينية فيما بعد ، ومنها على سبيل المثال ما قام به جيراري كريمون[14] من ترجمات للمراجع العربية للغات اللاتينية ، واستعمالها كنصوص أساسية بالجامعات الأوروبية ، حتى القرن السادس عشر ، ليختصر ريسلر كل ذلك في قوله : ((عانى الناس ورأوا ما بين القرن التاسع ، إلى القرن الثاني عشر، ما لم يكونوا صادفوه أبداً ، ففي كل مكان شغفٌ شديدٌ بالكتب ، ودُورٌ مكتظةٌ بالمؤرخين ، والجغرافيين ، والباحثين عن العلم والمعرفة ، إنها حقاً أعظم يقظة في التاريخ العربي الإسلامي)) [15] .

يُنهى ريسلر الفصل الأخير من كتابه لنستشف من خلاله ، أن الصعود الحضاري ذاك ما لبث أن أصيب بقوتين هدّامتين ، من الداخل : التراخي الذي تمثل في الانقسامات المذهبية والعوامل الاقتصادية ، كازدياد الثراء الذي نجم عنه البذخ ، والتكاسل الذي ألقى ظلاله على التفكك الاجتماعي ، والأخلاقي ، ومن الخارج : الحروب والغزوات المدمرة ، التي خلخلت البناء الكبير المترامي الأطراف ، وطال مركزية السلطة والقرار والسيادة ، لتعقبه بعد ذلك الحملات الصليبية سنة 1098م والغزو المغولي سنة 1216 م .

نستنتج من ذلك أن كتاب (الحضارة العربية) لجاك ريسلر بمثابة المرآة التاريخية التي حملت بين طياتها نظرة الذات ؛ أي تاريخنا ، وصورتنا ، ونظرة الأخر لنا ، وهذا هو جوهر التمعن في هذا الكتاب ، والجدير بقراءته . وهنا مكمن السؤال المعرفي ، من نحن ؟ ، لذلك فإننا معنيون بمعرفة ، ذاتنا ، وتاريخنا ، وحضارتنا.

أما التساؤل الثاني فهو حول إمكانية الوقوف بشكل مهني ومنهجي لنظرة الأخر لحضارتنا ؟ وأعني النظرة الغربية المُنصفة والجادة ، والعكس ، فالأخر معنياً بتحديدها ، شرط ألا يفرض أحداً على أحد رأياَ ، بالترغيب أو الترهيب ، أو التدليس ، لذلك فغالياً ما نشعر ونحن نقرأ ونتصفح كتاب : (الحضارة العربية) لجاك ريسلر ، نجد أن كاتبه التزم بالنزاهة قدر ما أمكن ، ولازمته الموضوعية فيما تناوله بشكل بارز ، كما قدَم مفهوماً أفضل لهوية الحضارة العربية وكيف جرى تكُونها عبر الأزمنة المذكورة ، ثم لخَص سبب انهيارها السياسي والفكري ، عقب سطوع شد أنظار جيرانه من الديانتين ، اليهودية ، والمسيحية على السواء، وربما قوى الإلحاد المختلفة ؛ كما نلمس شجاعته في توبيخه للشعوب الإسلامية حول استسلامها للأمم الأوروبية في قوله : ((هكذا أصُيب العالم الإسلامي بجمود ، فظَل علي الدوام مماثلاً لذاته، فهو جامدُ في القرن الثالث عشر، مثلما كان جامدٌ في القرن التاسع عشر، فبعد ما جمع أفضل ما في الحضارات كلها ، ووَزِعها عبر العالم ، صارت حضارته الذاتية ميتة ، وحياة شعوبه متدنية ، فالنخب القيادية التي كان يفترض بها أن تقود نهضتها تراخت في البطالة ، والفخامة ، وبينما الغرب يواصل تطوره ، كان العالم الإسلامي منزلقاَ في مهاوي رتابات الماضي ، والاستقالة الجماعية ، وهذا هو التفسير الذي يستحسن تقديمة لهم ، لمواجهة الصعود الهائل للحضارة الغربية)) (16) .

ثالثاَ ــ المدَرسة الألمانيـــــة خصائصها ، وأهم أعلامها :

ترجع صلة الألمان بالشرق الى القرن العاشر الميلادي ، وذلك عندما أرسل الامبراطور الألماني (أوتو) كاهناً يُدعي (يوحنا) كسفير لدى الخليفة (الناصر) وكان ذلك سنة (1552 م) ، وبتلك الفترة ظهر المستشرق كرستمان (1554 ــ 1613 م) ، وهو أول من وضع كتاب لتعليم الحروف العربية وكيفية كتابتها(16) ، غير ان الدراسات الاستشراقية الألمانية إزداد نشاطها في القرن الثامن عشر ، خلافاً للبلدان الأوروبية الأخرى ، وبلغت تلك الدراسات أوجها بعد أن تخرج علي يد المستشرق (دي ساسي) عشرات من المستشرقين الألمان(17) ، ويعتبر (رايسكة) المتوفى عام (1774 م) ، رائداً بالدراسات العربية والإسلامية ، فقد تعلّم العربية ، واشترى أغلب المؤلفات العربية التي وصلت إليه بالرغم من فقره ، وقام بترجمة وفهرسة العديد من الكتب العربية واللاتينية ، للألمانية(18) .

ويطول بنا المُقام لو أردنا تتبع إسهامات المستشرقين الألمان في مجال الدراسات العربية والاسلامية ؛ لذا سنكتفي بهذا القدر الذي يُعطى لمحة عن نشاطاتهم ، كما سنستعرض أبرز خصائص هذه المدرسة التي ينتمون إليها .

خصائصها :

1ـ اهتمامهم بنشر المخطوطات الإسلامية والعربية وتحقيقها وفهرستها .

2ـ وضع المعاجم العربية وترجمتها من اللاتينية ، ثم الألمانية ، وبرز بهذا المجال العديد من الأسماء مثل : فرايتاج ، ونولدكة ، وهانزفير .

3ـ اتصاف روَادها بالمثابرة تنقيباً ، وبحثاً في دراستهم للمخطوطات ، والكتب القديمة، وإنشائهم لمعاهد لهم في عواصم بعض البلاد العربية منها بيروت ، والقاهرة ، وبغداد .

4 ـ دراستهم اللهجات المحلية الخاصة بالبلاد العربية ، كوسيلة منهم لتوثيق الصلات مع الأهالي .

5ـ اهتمامهم بدايةً بالدراسات اللغوية والأدبية ، ومن ثم التركيز على الدراسات الإسلامية ، والتاريخية العربية ، بشكل كبير .

6ـ عُرف عن بعضهم شدة التعصب .

أبرز أعـــلام المدَرسة الألمانيـــــة :

1- فلوغل (ت 1870 م) ، حقق مخطوطي كلاً من(الفهرست) و(كشف الظنون) .

2ـ فيشر (ت 1944 م) ، حقق مخطوط (الفصول والغابات) .

3- جولد زيهر (ت 1921) ، حقق مخطوط (المستظهر في الرد علي الباطنية) .
4- هانيرس بارث (ت 1883 م) ، عالم ورحالة ، انطلق من مدينة طرابلس متوجهاً نحو وسط وغرب أفريقيا ، واستمرت رحلته تلك خمس سنوات في الفترة ما بين(1849م ـ 1855م) ، وكان نتائجها مؤلف ضخم بعنوان : (رحلات استكشافية في شمال ووسط أفريقيا) ، كما له العديد من الإسهامات في تحقيقه لمخطوطات أخرى .
5- جوليوس فلهاوزن (ت 1918 م) ، برز في دَراسة الوثنية ، وانتقل إلى الحقبة الإسلامية ، كما حقق مخطوط (تاريخ الطبري) .

أما أنموذجنا في هذا البحث من المدَرسة الألمانية ، وكما أشرت سابقاً المستشرق فان فلوتن ، والذى يُعد ممن اهتموا بدراسة التاريخ العربي الإسلامي خاصة فترة الأمويين ، والعباسيين ، وقد تردد اسمه في كثير من الكتب الأوروبية ، والعربية ، كمرجع يباهون ويتفاخرون بالاعتماد عليه ، بما ينسبه إلى الطبري ، والبلاذري ، واليعقوبي ، والواقدي ... ونحوهم ، فيُخيل للدارسين لكتابة أنه وثَّق كل أخباره ، وأتى بها من منابعها ؛ وكأنه لا يعرف أن المؤرخين العرب المسلمين يعرفون كيف يتعاملون مع هذه المصادر التي أعتمد عليها ، وأنهم في الأخذ عنها لديهم منهج صارم في التعامل معها ، ومع أمثالها !

وبعد اطلاعنا على هذا الكتاب ، وما صادفنا فيه من تُهم حول التاريخ الإسلامي، ونقصد تاريخ (الدولة الأموية) و (الدولة العباسية) ، نلحظ أسلوب الازدراء والسخرية الذي حفل به هذا الكتاب بين طيات أبوابه الثلاثة من مؤلفه ، وفيما يلي بعض الأمثلة التي توضح ذلك حيث يقول : ((لقد أصاب الأسر المرموقة في الكوفة ثراءً فاحشاً ، كان مصدره المغانم والأُعطيات السنوية ؛ فكان الكوفي إذا ما ذهب إلى الحرب ، يصطحب معه أكثر من ألف من الجِمَال عليها متاعه ، وخدمه)) [19] .

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا ؛ هل يُعقل ذلك ! وكيف يذهب الجندي الكوفي إلى ميدان الحرب ومعه أكثر من ألف من الجِمَال ؟ فلو قرأ أي عاقل ذلك لاتهم صاحبه بالوهم ، والخطأ ، ورفض أن يسرد هذا الكلام أو ينقله ، يقول – أيضاً- : ((الاحتلال العربي بوجه عام شعباً يعيش على حساب شعب آخر، وكان أهل الولايات المغلوبة يحرثون ، ويبذرون ، والمسلمون يحصدون ، ولا عمل لهم سوى الحرب ، وشن الغارات ...، وتبين لنا أن الفاتحين العرب ورؤسائهم مهمتهم في الشرق ، أن كل واحد منهم يجعل نصب عينيه مصلحته الشخصية قبل كل شيء ، أما الإسلام والعمل على نشره ، فقد ظل أمراً ثانوياً)) [20] .

بناء على ما سبق ، نلحظ أن فان فلوتن يريد أن يثبث أن فتوحات المسلمين كانت نهباً لخيرات وثروات البلاد المفتوحة فقط لا غير ، والحقيقة خلاف ذلك ؛ لأن كل ما تناوله في كتابه تناقضات غير صحيحة ، هدفها التشكيك في ثقافة الإسلام ، والحضارة العربية ، بُغية جذب الأنظار نحو العرب ، وإشباع لحاجات في نفوس القوم ، ومنافع لهم حول ذلك(21) ، يقول العقَاد موضحاً الغرض من مثل ذلك : ((يندر الإخلاص في مؤلفات القوم ؛ ولكنهم في قلة الإخلاص أو سوء النية أنواع ودرجات ، فمنهم المتعصبون للوطنية الغربية ، ومنهم المتعصبون للدعوة المادية ، والمتعصبون عن إيمان ، أو غش ، أو احتراف ، ومنهم طلاب الغرائب ، ومنهم دعاة الصهيونية والاستعمار)) (22) . وفي هذا الموضع لا بد من الإشارة إلى أننا لا نتفق مع فلوتن في كتابه حول الآراء التي طرحها ، والتي لا تتفق مع البحث التاريخي النزيه ، وعلينا أن نقف موقف الحذر، والكشف عن تلك المغالطات ، ولنتذكر ما ذكره المؤرخ مؤنس بقوله : ((يجب على كل مستشرق نزيه أن يكون محايداً فيما يعرضه لقرائه ، للوصول إلى منهجية حقيقية في دراساته حول الشرق)).

إن الرغبة في الطعن ، والتجريح ، والتشويه ، كثيراً ما حملت بعض المستشرقين إلى الاعتماد على أسانيد واهية ومرفوضة ، فبعضهم ينقب عن الروايات التاريخية الضعيفة ، وغير الثابتة في كتب السير والتاريخ ، وأحياناً لا يستوعب دراسة ما بين يديه من المسائل ، وهذا بطبيعة الحال انحراف عن المنهج العلمي السليم .

وفيما يتعلق بكتاب (السيادة العربية) يذكـــر أحد مترجمي الكتاب (حسن إبراهيم حسن) أنه أثناء دراسته بجامعة لندن ، بقسم التاريخ الإسلامي ؛ كان (توماس أرنولد) (23) يُشير في محاضراته إلى كتاب فان فلوتن ، بل والأكثر من ذلك فإن الكتاب هو من بين أهم المصادر التي يُعتمد عليها في التدريس بالجامعات هناك ، كما تتوفر نسخة منه بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية ، بجامعة لندن كذلك ، والذي يُعد هناك مرجعاً في بحوث العديد من الطلاب ؛ إذ يزودهم بطائفة من المواضيع حول تاريخ الدولة الأموية ، وأسباب سقوطها ، وكذلك الدولة العباسية .

ننوه إلى أنه في الوقت الذي تمت فيه ترجمة وتعريب هذا الكتاب ، أشاد المترجمان إلى حجم المغالطات التي حفل بها الكتاب ، والتي لا تتفق مع البحث التاريخي النزيه ، وبأنهما برجوعهما إلى المصادر العربية التي أخذ منها فلوتن ، قاما بتصحيـــح ما أخطأ في نقله ، وحرصاً منهما على نقل العبارات المقتبســة بنصها من المصادر العربية ، أشارا بالنقد ، والتعليقات ، والشـــروح ، التي أتيا عليها بعلامة x أو

xx ، وقد أصابهما الإعياء الشـــديد في التصحيح للكتاب الذي كُتب باللغة الفرنســـية ، تلك اللغة التي كان مؤلف الكتاب لا يحسن التعبير بها كما صرَح هو بنفســـه في مقدمته ، ثم إن الكتاب يخلو تماماً من وجود فهرس للمصادر، والبلدان ، والأعلام ، وغيرها ، والتي من شأنها أن تُسهِّل على القارئ استقصاء الحوادث التاريخية ، وتبيان المصداقيـــة ، ورغم ذلك ، فإن الكتاب في جملته متداول للمشتغلين بدراسة التاريخ العربـــي الإسلامي ؛ حتى أن فلوتن يذكر وعلى لسانه أنه كان مضطراً للكتابة ؛ لأنه أراد أن يكون ما كتبه في متناول المستشرقين من اللذين يعنون بجني ثمار الدراسات التي يقوم بها علماء الغرب عن الشرق .

لكننا نرى ضرورة أن يخضع هذا الكتاب للمراجعة ؛ لأن مؤلفه وقع في خطر الانزلاق ، لابتعاده عن الموضوعية المطلوبة في مجال البحث والكتابة ، فالتعاطف كان بارزاً في الكتاب مع الدولة العباسية على حساب الدولة الأموية ، كما أن المصادر التي استعملها المؤلف هي في مجموعها ، كُتب السنة ، والمذاهب ، والآداب ، ولم يستدل بالكتب التاريخية الهامة .

خلاصة القول أن الكتاب تنقصه بشكل واضح الرؤية العميقة ، والدقة والتحليل التاريخي الجيد .

الخاتمة والنتائـــــــج:

لقد كانت هذه الدراسة النقدية لفكر هذين المستشرقين (ريسلر و فلوتن) ، اللذين اهتما بتقديم دراسات حول الشرق ، وفيما تناولاه بكتابيهما يتبين لنا أن كلاً منهما يمثل جنسيةً مختلفة ، ويســـير في اتجاه مغاير للآخـــر ، وينطلق نحو أهداف متباينة، وينتمى لمدرسة معينة .

لقد كان لنا فضل السبق منذ ألف عام تقريباً في عملية – التعريب – أي عملية ترجمة العلوم اليونانية وغيرها إلى العربية ، وقد كانت تلك الترجمة سواء في العصر الأموي ، أو العباسي ، مدخلاً للبناء والتقدم الحضاري ، ولرفع المستوى الثقافي للإنسانية كافةٍ ،مما يستوجب علينا كباحثين عمل مراجعات نقدية لنصوص المستشرقين ، وتقديم إسهاماتنا الجادة في حقل الدراسات المتعلقة بالتاريخ ، واللغة ، والدراسات الإسلامية . وغيرها ، مع الاستعانة بالمناهج المتطورة في هذا المجال بالشكل الذي يلائم كل ذلك .

نصل مما سبق إلى استخلاص جملة من النتائج يمكن عرضها على هذا النحو :

1- إن المفهوم الأبرز للاستشراق يعنى بدراسة العلوم الشرقية ، ثم تطور ليشمل دراسة العلوم العربية بمختلف أنواعها .

2- استفاد المستشرقون كثيراً في دراساتهم للعلوم الشرقية والعربية ، واتجهوا نحو إصدار إنتاجهم وإرساله إلينا ونشرة الى العالم أجمع .

3- المستشرقون ليسوا صنفاً واحدا ، بل تعددت أصنافهم وكل صنف يخدم المدرسة التي ينتمي إليها .

4- من الضرورة بمكان أن يعمل باحثي ومفكري الفكر الإسلامي المعاصر على تتبع إنتاج المستشرقين ، والإثناء علي الحسن منها ، والرد علي أي تزييف وتشوية من البعض منهم يطال ، ديننا ، وتراثنا ، وتاريخنا ، وحضارتنا ، وهذا غاية جهدنا في هذا البحث .

التوصيات :

يجدر القول أنه قد جاء الوقت للتفكير في إقامة مؤسسة علمية تستطيع استقطاب الكفاءات التي تعمل علي إنجاز ونشر البحوث العلمية ، التي تقف على قدَم المساواة مع الحركة الاستشراقية ، حول ما سطَره المستشرقون ، وتقديم دراسات نقدية جادة ، والعمل على نشرها باللغات المختلفة .

الهوامـــــــــــــش :

1- محمد البهـــــي : الفكر الإسلامي الحديث وصلتة بالاستعمار الغربي ، دار بيروت للنشر ، ط 1 ، لبنان ، 1970م ، ص 30 .

[2] - إدوارد سعيد : الاستشراق (المعرفة - السلطة - الانشاء) ، تعريب ، كمال ابو ديب ، مؤسسة الأبحاث العربية ، ط 2 ، بيروت ، 1981م ، ص 16 .

[3] - رودى بارت : مستشرق ألماني ، ولد سنة (1901 م) ، من أسرة يكثر فيها القساوسة ، ودخل جامعة توبنجن وتتلمذ في الدراسات العربية ، وشغل عدة مناصب في هذه الجامعة ، وله العديد من الانتاج العلمي من رسائل وكتب مترجمة من العربية الى اللغة الألمانية . يحي مراد : معجم أسماء المستشرقين ، منشورات دار الكتاب العربية ، ط 1 ، بيروت ، 2004 م ، ص 130 .

[4] - رودى بارت : الدراسات الإسلامية والعربية في الجامعات الألمانية ، ترجمة ، مصطفي ماهر ، دار الفكر العربي ، ط1 ، القاهرة ، 1993م ، ص13 .

[5]- جاك ريسلر : (1819- 1891م) المستشرق الفرنسي ، والأستاذ بمعهد باريس للدراسات الإسلامية ، والذي نال جائزة الأكاديمية الفرنسية عن كتابه (الحضارة الإسلامية) . جاك ريسلر : الحضارة العربية ، تعريب ، خليل أحمد خليل ، منشورات دار عويدات للنشر ، ط1 ، بيروت ــ باريس ، 1993 م ، ص 4 .

[6]- سلفستر دي ساسي : (1758 ــ 1838 م) مستشرق فرنسي ، لقب بشيخ المستشرقين ، تعلم اللغة اللاتينية واليونانية والعربية ، عمل بمعهد اللغات والحضارات الشرقية بباريس . عبد الرحمن بدوي : موسوعة المستشرقين ، دار العلم للملايين ، ط1 ، د ت ، ص 413 .

[7] - ساسي سالم الحاج : الظاهرة الاستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية ، منشورات مركز دراسات العالم الاسلامي ، ج1 ، ط 2 ، 1993 م ، ص 120 .

[8]- جاك ريسلر : الحضارة العربية ، مصدر سابق ، ص 6 .

[9] - غاردية : مستشرق فرنسي ممن دِرسوا الفكر الإسلامي دراسة متعمقة ، وله العديد من الإصدارات منها كتاب (المجتمع الإسلامي) ، شارك في وضع الموسوعة الإسلامية باللغة الفرنسية . راغب السرجانى ، عظماء أسلموا ، تقرير حول غاردية ، موقع ويكيبيديا ، بتاريخ 12 / 8 / 1989 م .

10- أرنولد تونبي (1864 ــ 1930 م) ، تعلم في كمبريدج ، وهو أول من جلس على كرسي الاستاذية بقسم الدراسات العربية في مدرسة اللغات الشرقية بلندن سنة (1904 م) ، زار مصر وحاضر بالجامعة المصرية عن التاريخ الإسلامي ، وترجم العديد من الكتب العربية الى الإنجليزية . يحي مراد ، مرجع سابق ، ص 94 .

11- جاك ريسلر : الحضارة العربية ، مصدر سابق ، ص 74 .

12- هارون الرشيد : ولد عام (149 هـ / 766 م) ، وتوفي عام (193 هـ / 809 م) ، من خلفاء الدولة العباسية ، بويع بالخلافة وعمره 22 سنة ، عُرف عنه إهتمامه بالغلم والعلماء ، اتسم عهده بالفتوحات . عبد العزيز الدوري : أخبار الدولة العباسية ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، ط1 ، بيروت ، 1971 م ، ص 412 .

13- ريسلر : المصدر نفسة ، ص 150 .

14 - جيراري كريمون : (1111 - 1187 م) ، راهب فرنسي ، قصد الأندلس في إبان عظمتها ودرس فيها ، وترجم بعض الكتب العربية إلي الفرنسية ، وعاد إلي بلادة ودرس بالجامعات فيها . عبد الجبار الرفاعي ، ملامح ورؤية المستشرق للقرآن ، مركز دارسات العالم الاسلامي ، ط 1 ، 1992 م ، ص 4 .

15- جاك ريسلر : الحضارة العربية ، مصدر سابق ، ص ص 91 -104 .

16- ريسلر : المصدر السابق ، ص280 .

17 ــ صلاح الدين المنجد : المستشرقون الألمان ، دار الكتاب الجديد ، ط1 ، بيروت ، 1982 م ، ص 7 .

18 - محمد فتحي الزيادي : مدارس الاستشراق ، مجلة كلية الدعوة الإسلامية ، العدد الثالث ، كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس ، 1986 ، ص 286 .

19- فان فلوتن : السيادة العربية ، ترجمة وتعليق ، حسن إبراهيم حسن ، محمد زكي إبراهيم ، منشورات مكتبة النهضة المصرية ، ط 1 ، القاهرة ، 1965م ، ص 22 .

20- المصدر نفسه ، ص 23 .

21- عباس محمود العقاد : إسلاميات العقاد ، دار الشعب ، ط 1 ، القاهرة ، 1969م ، ص 18 .

22- حسين مؤنس : الفكر الإسلامي الحديث ، دار الغربي للنشر ، ط 1 ، الخرطوم ، 1987م ، ص 56 .

23- توماس أرنولد : من المفكرين الذين بحثوا في موضوع الحضارات ، عُرف بسعة اطلاعه وشغل منصب أستاذ في جامعة لندن ، أبرز إنجازاته موسوعته (دراسة للتاريخ) ، وله اصدارات أخري، توفي سنة 1975م. فاطمة حافظ ، تقرير حول السير توماس ، موقع ويكيبيديا، بتاريخ 19 / 2 / 2018 م .